ضلالات السبتيّين حول الأيقونة والقدّيسين وذخائرهم

١٣ كانون الأوّل ١٩٩٨

يعتقد السبتيّون أنّهم أطهر الناس طرًّا، فهم – كما يعتبرون أنفسهم – لم يتوهوا كما تاه مسيحيّون كثيرون، إذ "طلّقوا" هم – وحدهم – تعاليم عديدة لا تتوافق والكتابَ المقدّس. ولعلّ ما يفضح كبرياءهم ويجعلك تعتقد أنّهم أقفلوا نهائيًّا على أنفسهم وما يعتقدونه صحيحًا، هو أنّهم رفضوا أيّ حوار مع الكنائس، وبقوا أنقياء ومحافظين على العهد الأوّل، كما يدّعون. ومن الأمور المضلّة التي يفتخرون بها أنّهم يجدّفون على تكريم القدّيسين وذخائرهم وصورهم... والصلاة من أجل الراقدين والمسحة المقدّسة، وغيرها... (أنظر: إيمان الأدفنتست السبتيّين، صفحة ٢٧٣).

والحال أنّ القدّيسين هم ثمرةُ حبّ الله، ووجه من وجوه حضوره وتغلّبه على الخطيئة والموت. وكلّ إنكار لهم هو إنكار لدعوة الله: "كونوا قدّيسين لأنّي أنا قدّوس" (أحبار ١١: ٤٥؛ ١بطرس ١: ١٦). هذا الكلام الإلهيّ، وإنْ عنى الكنيسةَ "المجاهدة" في هذا الدهر، فهو يبقى يخصّ الذين أحبّوا الله بصدق كبير ورقدوا على رجاء القيامة، لأنّ الذي قهر الموت هو غالبه فيهم ومقدّسهم في كلّ حال ووقت. يقول الرسول بولس: "إنّي واثق بأنّه لا موت ولا حياة... بوسعها أن تفصلنا عن محبّة الله التي في المسيح يسوع ربّنا" (رومية ٨: ٣٨ و٣٩)، وهذا الكلام يخرج على الحقيقة والتعزية إن لم يُفهم أنّ الله يحفظ أحبّاءه في حضرته الأبديّة (الكنيسة المنتصرة)، وعلى هذا الأساس يجب أن نقبل كلام السيّد: "حيث أكون أنا يكون خادمي" (يوحنّا ٨: ٢٦، ١٤: ٣ و١٧: ٢٤). وهذا يدفعنا توًّا إلى القول إنّ العلاقة بين الكنيسة المنظورة وغير المنظورة قائمة على أساس وحدة جسد المسيح. فتكريم القدّيسين وطلب شفاعتهم، في تراثنا، يبنى على الإيمان بوحدة الكنيسة، إذ إنّنا نثق بأنّ القدّيسين الذين "تبرّأوا من الخطيئة" التي مازلت تحاربنا، وباتوا أقوى من المدى والزمان، هم، في المسيح يسوع، معنا ونحن معهم، وتاليًا يحفظونا ويشدّدونا بأدعيتهم وتسبحتهم غير المنقطعة التي تعلّي الله وملكوته وترفض كلّ شرّ في العالم (رؤيا ٦: ٩– ١١). وذلك أنّ الذي "أحنى السموات" وخلّصنا، ألغى ما هو فوق وما هو تحت، وأقام

الموضوعان الأخيران (الصلاة من أجل الراقدين وسرّ الزيت المقدّس) عولجا على صفحات هذه النشرة (١٩٩٦/٣٢، ١٩٩٧/١٦). سنحاول، في هذا المقال، أن نفنّد انحرافهم حول عدم تكريمهم القدّيسين وصورَهم وذخائرَهم، على أن نتناول، في مقالات لاحقة، بعض انحرافاتهم الأخرى.

ليس تكريم القدّيسين (أو الابتهال إليهم) وصورِهم وذخائرِهم عبادةً لهم، ولا هو "بضلال" أو "مِن حيلِ الشيطان"، كما يقول السبتيّون (ألن هوايت، الصراع العظيم، صفحة ٦٥ و٦١٧). فالعبادة لغير الإله الواحد لم نرفعها يومًا، وذلك أنّ شهادتنا ظاهرة جليًّا، ولا نحتاج إلى مَن يفسّر عقائدنا ويحاربنا على أساس توهّماته. وهذا ما حاولَتْه، في هذا السياق، نبيّة السبتيّين (هوايت)، إذ اعتبرت أنّ ما أقرّه المجمع المسكونيّ السابع (٧٨٧ ب.م.) لجهة تكريم صور القدّيسين (وذخائرهم)، عملٌ غايتُهُ إعطاءُ "المهتدين من الوثنيّة إلى المسيحيّة شيئًا كبديل من عبادة الأوثان" (م.ن.، صفحة ٥٨). لا نعلم من أين استوحت هذه السيّدة هذا التفسير المنحرف، ولكنّنا نعرف تمامًا أنّ آباء المجمع أبرياء منه، وذلك أنّهم أمروا بتكريم صور الربّ وقدّيسيه (وذخائر القدّيسين)، باعتبارها مسلّمة إلهيّة تؤكّد حقيقة التجسّد الإلهيّ (أنظر وقائع جلسات هذا المجمع وقراراته).

كتاب الملوك الرابع: "فبينما هم يقبرون رجلاً أبصروا الغزاة، فألقوا الرجل الميت في قبر أليشاع، فلمّا هبط الرجل ومسّ عظام أليشاع عاش وقام على قدميه" (٣١: ٢١، ٢٠: ٧؛ أنظر أيضًا: ٣ملوك ١٣: ٢٥– ٣١؛ ويعلّمنا العهد الجديد أنّ قوّة الربّ تكمن حتّى في ثيابه: متّى ٩: ٢٠– ٢١، ١٤: ٣٦؛ أو في ظلّ رسله: أعمال الرسل ٥: ١٥، وفي أشيائهم الخاصّة ١٩: ١١– ١٢). وقد حصل ما يشبه هذه المعجزات في حياة عدد من القدّيسين بعد انتقالهم، ففي يوم رقاد القدّيس نكتاريوس "وبينما جثمانه الطاهر لا يزال في المستشفى، أُلقيت قطعة من ثيابه بالصدفة على مريض مجاور فشفي في الحال" (راجع كتاب: "زاد الأرثوذكسيّة"، صفحة ٢٨٦)... غير أنّ البحث، على إيجازه، لا يكمل إن لم نؤكّد بشدّة أنّ تكريم ذخائر القدّيسين واجبٌ يتطلّبه حدث تدبير الله الخلاصيّ. فالله الذي كرّم البشريّة بتجسّدِهِ وقهرِهِ – في الجسد – الخطيئةَ والموت، رفع الإنسان إلى الألوهة. ولعلّ هذا ما دفع الآباء القدّيسين في المجمع المسكونيّ السابع إلى أن يدافعوا بآنٍ عن الأيقونة وبقايا القدّيسين (القانون الـ٧).

لا تفهم المسيحيّة بأنّها ديانة رجائيّة وحسب (أي أنّ عطاءاتها تختصّ بالعالم الآتي فقط)، لأنّها أيضًا "كلّيًّا" ديانة الحاضر. فالمسيح الربّ الذي أتى وخلّصنا ووعدنا بالحياة الأبدّية أعطانا "الآن وهنا" أن نتذوّق فرح القيامة العظيم، وهو يقول هذا صريحًا، في هذا الدهر، في أجساد القدّيسين الذين غلبوا الموت وباتوا مقرًّا للروح القدس وعمله.

لنا القدّيسين، في مسيرتنا الجهاديّة، عضدًا ودعوة جدّيّة وإنجيلاً حيًّا مفتوحًا ومقروءًا ومطاعًا. ولذلك كلّ ابتعادٍ عنهم أو إبعادٍ لهم (أو لصورهم وذخائرهم)، هو تقزيم لجسد المسيح الواحد وإنقاص لغلبته، يقول القدّيس نيقولا كابسيلاس: إنّ "قداسة القدّيسين هي أعظم عطايا الله للإنسان، والكنيسة تضحي شرّيرة وجاحدة إنْ لم تشكره عليها" (أنظر كتابه: "شرح القدّاس الإلهيّ"، صفحة ١٣٢ و١٣٣).

ثمّة، في الروحانيّة المسيحيّة، علاقة وثيقة ما بين تكريم القدّيسين وتكريم صورهم وذخائرهم. فالأيقونة والذخيرة هما بمثابة حضور مَن يمثّلان، ويعتبران "كنقطة اتّصال بين أعضاء الكنيسة والذين سبقوهم"، وهما تاليًا يساعدان المؤمنين على الصلاةِ واعتبارِ القدّيسين "أشخاصًا معاصرين وأصدقاء حقيقيّين" (المطران كاليستوس وير). ولا شيء يفسّر تحريف السبتيّين – ومَن لفَّ لفَّهم – لهذا الأمر، إلاّ جهلهم الحقيقةَ وتلهّيهم بالقشور، فهم إذ ركنوا إلى حروف الوصايا، لم يعوا، مثلاً، أنّ تحريم التصوير، الذي هو وصيّة قديمة (خروج ٢٠: ٤ و٥)، أبطله مجيء ابن الله إلى العالم. وأيضًا، وفي السياق عينه، يمكن القول إنّ رفضهم ذخائرَ القدّيسين – وهي عادة قديمة تعود إلى الأزمنة المسيحيّة الأولى – هو، بالحقيقة، رفضٌ للقداسة وعمل الله في التاريخ، وتاليًا تحريفٌ لتعليم الكتاب المقدّس الذي يدّعي السبتيّون الركون إليه "وحده". فثمّة آيات كتابيّة عدّة تبيّن فائدة ذخائر القدّيسين وتستدعي واجب تكريمها، نقرأ في